

جمال الربيع
في فنون علم البديع
في اللغة العربية
(الجامع للطرد والعكس)
أسامة شعبان

بلغ العرب شأواً عظيماً في تصوير ما يرونه، والتعبير عما يشعرون به، فكان الشعر والخطابة ونحوهما. وضمت اللغة العربية في ما ضمت أشكالاً من البلاغة، عرفت التطور جيلاً تلو جيل، وكان من ذلك علوم البلاغة العربية الثلاثة: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع. وعلم البديع فن شائق جميل، لكن وإن بدا أن ظاهره لين الملمس، رقيق الحواشي، سهل بسيط، فهو في حقيقة أمره غير ذلك، ففيه الحزونة، وفيه المزالق والعقبات والمخاطر. وقد اختلف الناس في الحكم على البديع وأهله اختلافاً شديداً، إذ إن فريقاً يعظّمه، ويسلك فنونه في قصائد دُعيت بالبديعيات، ويؤلف فيه، ويحتفل به غاية الاحتفال؛ وفريق ثانٍ ينظر إليه باشمئزاز، واصفاً العصر الذي ساد فيه وشاع بعصر الانحطاط أو الانهيار أو الاضمحلال. هذان الموقفان المتباينان: موقف علماء انداح زمنهم من القرن الخامس الهجري إلى القرن الرابع عشر، وأحبوا البديع وألوانه، ولا سيما الذي حمل صورة مبتكرة، ونمّ على رشاقة، ونضحة بعدوبة، وتوشّح بأسلوب رفيع، فقد كان يسلب ألبابهم، ويشغف قلوبهم، ويملك عقولهم، سواء أ جاء بصورة جناس أم سجع أم طباق أم تورية أم غير ذلك، فالفنون البديعية جميعاً على حدّ سواء، طالما كانت ناجحة، وطبيعية، وأنيقة، وفيها مسحة من جمال؛ أما في حال شموا منها رائحة التكلف والجهد والعرق، فإنهم كانوا يرفضونها، أو لا يعبأون بها، ويتركونها تذوي... أما الفريق الثاني، فموقفه موقف كثير من المؤلفين المعاصرين، إذ إنهم وقفوا من البديع وأهله وعصره وأدبه، شعره ونثره، موقفاً متشنّجاً، ذلك أنهم رفضوا كل ما جاء به العصر المملوكي

والعثماني، ومن قبلهما العصر العباسي، ولم يفرّقوا بين الفنون البديعية، وبين الشعراء، وبين الإنتاج الأدبي، وبين من نجح وأخفق.

ومن فنون البديع الجناس، ومن فنون الجناس "الطرد والعكس"، فما المقصود به؟ هو كلام يُقرأ من اليمين إلى اليسار، وبالعكس، فيبقى كما هو، مثل: أرض خضراء، ربح أحمر.

ويُعدّ "الطرد والعكس" من الأشكال الشعريّة الجديدة التي شاعت في العصر العثماني. وذلك رغبةً منهم في التجديد، ولإظهار قدراتهم اللغويّة والأدبيّة. وهو شكل من أشكال التجديد الشعري التي لم يُكتب لها البقاء إلى يومنا هذا؛ لاعتمادها. في أغلبها. على الصنعة والتكلف. وأبرز سمات شعر "الطرد والعكس" أنه صعب النظم، يحتاج إلى جهد عقلي كبير، يلتزم فيه الشاعر ما لا يلزم، بروز الصنعة اللفظية فيه بشكل واضح، يحتوي على الذكاء والظرف، يحتاج إلى دقة ملاحظة، ويتطلّب قدرة لغويّة واسعة.

لكن هل لنا أن نحكم في العصر الحاضر على ظاهرة "الطرد والعكس" التي سادت في العصر العثماني؟

من الغبن أن نحكم على ظاهرة "الطرد والعكس" في العصر العثماني بمقاييس عصرنا، بل ينبغي عند الحكم عليه الأخذ بعين الاعتبار ظروف حياة الأدباء في ذلك العصر وثقافتهم، وأحوال حكاهمهم، والأسباب التي دعتهم إلى التعمق والإكثار منه.

ما "الطرد والعكس"؟

"الطرد والعكس". أو "جناس ما لا يستحيل بالانعكاس". ضرب من ضروب الجناس الذي هو من المحسنات البديعية في اللغة العربية، ويسمى "القلب"، أو "قلب المستوي"، أو "العكس اللفظي"، وهو أن يقرأ الكلام من آخره إلى أوله، كما يقرأ من أوله إلى آخره لا يتغير منه شيء، والمعتبر فيه الحروف المكتوبة لا الملفوطة.

وهو فنٌّ لا يَعُدُّو أن يكون مهارة شكلية لفظية، لا يرتبط به غالبًا معنًى، والرديء قد يُفسد المعاني المقصودة، أو يُلجئ إلى استجلاب معانٍ ليست ذات قيمة تُعتَبَر لدى أهل الفكر، أو تستحق تخصيصها بالذكر، فهو تعبير عن حذاقة وصبر وجهد الأديب الذي يقصد إلى إظهار براعة أو تزجية فراغ، وليس بالضرورة تعبيرًا عن تأثر وتعمق له علاقة بالتجربة الإنسانية¹.

و"الطرد والعكس" هو أكثر أنواع البديع تكلفًا، ومن غير المتاح كتابته من غير نوع من التكلف.

وهو من جملة أفانين البلاغة، ويدل على الاقتدار في الكلام والإعراق فيه، وهو قليل، ونادر، وصعب المسالك، ووعر المرتقى، لا يكاد يأتي به إلا من بلغ شأواً عالياً في البلاغة، وكان له قدم راسخة في الفصاحة.

وهو كما وصفوه، حتى لا يتصور الإنسان إتيانه بدفع الوجدان، بل هو - إلا النادر منه - وليد الكلفة، ولا يحسن مما مثلوا به إلا القليل، الذي جاء على ما شرطوه².

ومن أمثله النثرية قول **القاسم بن علي الحريري**³: ساكب كأس⁴.

ومن أمثله الشعرية قول **الأرجاني**⁵: [الوافر]

¹ صفي الدين الحلبي، نتائج الألفية في شرح الكافية البديعية، ص215، 216. محمد التنسي، نظم الدر والعيقان، ص303.300. عبد الرحيم العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ج1، ص299.295.

² عز الدين علي السيد، التكرير بين المثير والتأثير، ص219.

³ هو الرئيس أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري، نسبة إلى صناعة الحرير أو بيعه، ولد بالمشان، وهي قرية قريبة من البصرة، ثم رحل إلى البصرة وسكن في محلة بني حرام، وتآدب بها، وقرأ العربية على أبي الحسن بن فضال الجاشعي شيخ إمام الحرمين، والفقهاء على أبي إسحق الشيرازي. كان الحريري من ذوي الجاه واليسار، وكان له منزل بالبصرة يقصده الأدباء والعلماء يقرؤون عليه أو يفيدون من علمه، وخصوصًا بعد أن ألف "المقامات" وذاع أمرها بين الناس، وكان مرهف الشعور، صادق الحس والتخمين. كان الحريري ضئيل الجسم عصبي المزاج، ينتف شعرات لحيته إذا اشتغل بالتفكير والكتابة. وللحريري ديوان رسائل، وله: "الرسالة السينية والشينية"، وله ديوان شعر، و"درة الغواص في أوهام الخواص"، و"ملحة الأعراب في صناعة الإعراب". ولد سنة 446هـ، وتوفي في البصرة سنة 516هـ، وله من العمر سبعون عامًا. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج4، ص596. 618. بتصرف. محمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج1، ص256. 258.

⁴ خليل بن أبيك الصفدي، نصره الثائر على المثل السائر، ص370.

⁵ هو أحمد بن محمد بن الحسين، أبو بكر، ناصح الدين، الأرجاني. شاعر، في شعره رقة وحكمة. ولي القضاء بثستر وعسكر مُكرم، وكان في صباه بالمدرسة النظامية بأصبهان. جمع ابنه بعض شعره في ديوان _ ط. ولد سنة 460 هـ، وتوفي بثستر سنة 544 هـ. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1، ص215. بتصرف.

مَوَدَّتُهُ تَدَوْمٌ لِكُلِّ هَوْلِ وَهَلْ كَلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدَوْمٌ؟

فهذا البيت يمكن قراءته من اليمين ومن اليسار على حدّ سواء. وتكرير الكلمات فيه ظاهر، ولكنه غير مقصود ها هنا، إنما المقصود الأول هو التكرير الخفي، فالسامع أو القارئ لا ينتبه إليه إلا بالتنبيه عليه، وهو أن تعاد قراءة الكلمات من آخر حرف، فتوجد عندها بلا نقص أو تحريف أو تغيير، من حيث الشكل، ومن حيث الدلالة؛ وهذا هو سرّ دقته، ووعورة مسلكه، وتأنيبه إلا على فرسان الصناعة الأدبية⁶.

و"الطرد والعكس" ورد في كتاب الله تعالى في موضعين لا ثالث لهما:

(1) ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾⁷.

(2) ﴿وَرَبِّكَ فَكَبَّرُ﴾⁸.

من دون حرف الواو في عملية القلب.

ويمكن تطبيق القراءة المزدوجة عليهما، كالبيت السابق.

من اخترع فنّ "الطرد والعكس"؟

ظهر فنّ "الطرد والعكس" - برأبي - في العصر العباسي الرابع على يد **أبي محمد القاسم ابن علي بن محمد بن عثمان الحريري** الذي اشتهر به (و 446 هـ ، ت 516 هـ). نشأ "الطرد والعكس" في أواخر العصر العباسي، وشاع وانتشر في العصرين المملوكي والعثماني. وقد بنيتُ هذا الظنُّ شبه اليقيني على عدّة أمور، منها:

⁶ عز الدين علي السيد، التكرير بين المثير والتأثير، ص219.

⁷ سورة الأنبياء 21 / آية: 33.

⁸ سورة المدثر 74 / آية: 3. صفي الدين الحلبي، نتائج الألفية في شرح الكافية البديعية، ص215، 216.

1. الملاحظ أن كثيراً من الذين تكلموا على "الطرد والعكس" يعودون عند تعريفه وذكر أمثلته إلى **الحريري**.

2. براعة **الحريري** في الابتكار، وتفردّه في هذا المضمار، وأدُلُّ الدلائل على ذلك مقاماته الحيرية العجيبة الفريدة في ألوانها وأشكالها وأنواعها وضروبها وأساليبها، ومن كان هذا حاله، فلا يبعد أنه صنع الفنّ الأعجب: "الطرد والعكس"، في عصر انعكس فيه التمدن ورفاهية العيش على صناعة الأدب، فكثر التطريز والوشّي والتفنّن بأنواع البديع.

"الطرد والعكس" لغةً:

■ قال أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ)⁹:

"وكلام مقلوب، وقلّبتّه فانقلب، وقلّبتّه فتقلّب"¹⁰.

■ وقال أحمد بن فارس (ت 395هـ)¹¹:

"ومن الباب: العكس، قال الخليل: هو ردّك آخر الشيء إلى أوّله"¹².

"الطرد والعكس" اصطلاحاً:

⁹ هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليماني، أبو عبد الرحمن. من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض. وهو أستاذ سيبويه النحوي. ولد ومات في البصرة. والفراهيدي نسبة إلى بطن من الأزد، وكذلك اليماني. له: "العين". خ، في اللغة، و"معاني الحروف" . خ، وكتاب "العروض". ولد سنة 100هـ، وتوفي سنة 170هـ. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج2، ص314. بتصرف.

¹⁰ الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج5، ص171، مادة ق ل ب.

¹¹ هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين. من أئمة اللغة والأدب. أصله من قزوين، وأقام مدة في همدان، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها، وإليها نسبته. من تصانيفه: "مقاييس اللغة". ط، ستة أجزاء، و"المجمل". خ، طبع منه جزء صغير. ولد سنة 329هـ، وتوفي سنة 395هـ. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1، ص193. بتصرف.

¹² أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص107، مادة ع ك س.

يقول **أحمد الدمنهوري**¹³ بحروفه: " أن يكون الكلام على ترتيب بحيث لو افتتح من آخره إلى أوله لخرج النظم الأول بعينه"¹⁴.

وهو فن من فنون الجناس، وهو بديع لفظي، ويقصد العلماء بهذا اللون أن يُقرأ الكلام، شعرًا كان أم نثرًا، من الأول إلى الآخر، ويكون كقراءته من الآخر إلى الأول بطريقة مقلوبة. وبعبارة أخرى: أن يكون **عكسه كطرده**، مثل كلمة "باب"، فلو قُرئت **طردًا** أو **عكسًا** كانت على لفظ واحد.

وهو زخرفة لفظية، ينبغي أن تكون عفويةً غير متكلفّة، وأن لا تَطْعَى على المعنى، وألا تكون غايةً في ذاتها¹⁵.

وهذا الفن عُليم، ومن صنّفه علمًا فهو تصنيف مجازي تجوّزي. وتكرّر كثير من أمثله في العديد من الكتب، حتى يظهر أن اللاحق نقل عن السابق. وقد نال العرب به قصب السبق على أقرانهم من الأمم.

المبادئ العشرة لـ"الطرد والعكس"

أما المبادئ العشرة لـ "الطرد والعكس" فهي . بافتراضي¹⁶ . الآتية:

1. حدّه: فن من فنون الجناس التابع للمحسنات البديعية العربية.

¹³ هو أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهوري. شيخ الجامع الأزهر، وأحد علماء مصر الكثيرين من التصنيف في الفقه وغيره. كان يعرف بالمذهبي لعلمه بالمذاهب الأربعة. ولد في دمنهور، وتوفي بالقاهرة. ولد سنة 1101هـ، وتوفي سنة 1192هـ. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1، ص164. بتصرف.

¹⁴ أحمد الدمنهوري، حلية المصون على الجوهر المكنون، ص173. وفي خلاصة لتعريف هذا الفن في زماننا هذا يقول رفيق عطوي: "وتجدر الإشارة في هذا الجناس إلى أنه ليس جناسًا بين لفظين فقط... ولكنه جناس قد يكون في عبارة أو جملة تقرأ طردًا وعكسًا، فتبقى على حالها، ومن دون تغيير في المعنى". رفيق عطوي، صناعة الكتابة، ص142.

تغيير في المعنى". رفيق عطوي، صناعة الكتابة، ص142.

¹⁵ فايز الداية، البلاغة العربية، ص148.

¹⁶ لم أجد في الكتب البديعية من قام بوضعها كاملة.

2. موضوعُهُ (تعريفه): أن يكون الكلام بحيث لو عكسَ كان الحاصل من عكسه هو ذاك الكلام بعينه.
3. غايته وفائدته وثمرته وغرضه: المتعة البديعية، وإعطاء بُعد جديد للحروف العربية، والتكامل الجمالي للظاهر مع المضمون.
4. استمدادُهُ: بالقرينة والموهبة.
5. فضله: بفضل ما يؤديه بالنسبة والاعتبار، فشرفه بشرف فائدته.
6. مسائلُهُ: قواعده كقولك: التاء المربوطة تحسب في القلب كالتاء المبسوطة.
7. واضعُهُ: ظهر في العصر العباسي الرابع (447 . 656 هـ)، على يد القاسم بن علي الحريري (و 446 هـ ، ت 516 هـ).
8. نسبته لباقي العلوم (كيف يميّز عن العلوم الأخرى): التباين والاختلاف.
9. اسمه: "الطرد والعكس" أو "جناس ما لا يستحيل بالانعكاس" أو "القلب".
10. حكم الشارع فيه: الإباحة.

قواعد "الطرد والعكس"

قواعد عملية القلب:

1. لا يُنظر إلى الشكل (َ) الذي يوضع على الحروف أو تحتها عند عملية القلب.
2. لا يميّز أثناء القلب بين التاء المربوطة والتاء المبسوطة.
مثل: بَلَحٌ تَعَلَّقَ تحتَ قلعةٍ حَلَبَ.
3. لا يُذكر الهمز أحياناً أثناء عملية "الطرد والعكس".
مثل قول الحريري: لذ بكل مؤمل إذا لم وملك بذل.

4. الشدّة لا تُحسب في هذا الفن، لأنهم يراعون رسم الحروف لا اللفظ، فالحرف المشدّد في هذا الباب في حكم المخفف¹⁷.

5. ألف المدّ والألف المهموزة والألف بدون همز والألف التي يليها همز، كلها سواسية في عملية القلب.

مثل قول **الحريري**: [مجزوء الرجز]

أُسْ أَرْمَلًا¹⁸ إِذَا عَرَا وَاوَع إِذَا الْمَرْءُ أَسَا

6. لا يُؤثّر تكرير الهمز أو الألف في عملية القلب.

مثل قول **الحريري**: [مجزوء الرجز]

أُسْ أَرْمَلًا إِذَا عَرَا وَاوَع إِذَا الْمَرْءُ أَسَا

والشاهد: المرء أسا.

ومثل¹⁹: [مجزوء الرمل]

إِنْ أَسَانَا أَنْتَ عَاف اعْتَنَا إِنَّا أَسَانَا

7. لا يُؤثّر وجود حرف في الشطر الثاني في عملية القلب لكل البيت.

مثل: [الوافر]

مُودَتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ وَهَلْ كُلُّ مُودَتِهِ تَدُومُ؟

8. ياء المخاطبة لا مدخل لها في الجناس.

مثل قول **الصفدي**²⁰: [البسيط]

كُفِّي الْقِتَالَ وَفُكِّي قَيْدَ أَسْرَاكَ يَكْفِيكَ مَا فَعَلَتْ بِالنَّاسِ عَيْنَاكَ²¹

¹⁷ طاش كبري زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ص256. عبد الغني النابلسي، نفحات الأزهار، ص252.

¹⁸ سَرِدُ هذه الأبيات كاملة مشروحة في الفصل الثاني: نشأة "الطرد والعكس"، مبحث: دراسة "الطرد والعكس" في المقامات.

¹⁹ قائل البيت مجهول.

²⁰ هو عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم السننسي الطائي، صفي الدين الحلبي. شاعر عصره، ولد ونشأ في الحلة بين الكوفة وبغداد، واشتغل بالتجارة، وانقطع مدة إلى أصحاب ماردين، فتقرب من ملوك الدولة الأرتقية، ومدحهم، وأجزلوا له عطاياهم. توفي ببغداد. له: ديوان شعر. ط، و"العاطل الحالي". ط، رسالة في الزجل والموالي، و"درر النحور". خ، وهي قصائده المعروفة بالأرتقيات. ولد سنة 677هـ، وتوفي سنة 750هـ. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج4، ص17، 18. بتصرف.

9. تاء الضمير لا مدخل لها في الجناس.

مثل قول **الدمامي**²²: [الطويل]

بنفسي عذار ملت نحو اخضراره
ولمت عليه عاذلاً ومفئداً²³

10. لا يُميّز بين الهاء والتاء المربوطة في القلب.

مثل قول **الحريري**: [مجزوء الرجز]

أسند أخوا نباهة
أبن إخاء دنسا

11. لا يميز بين الألف المقصورة والياء في القلب.

مثل قول **الحريري**: [مجزوء الرجز]

اسكن تقو فعسى
يسعف وقت نكسا

الغاية من "الطرد والعكس"

إن التهمة الموجهة إلى فنّ "الطرد والعكس"، أنه مضيعة للوقت، ولا طائل تحته، ولا يهتمّ بالمعنى، ويناقض البلاغة العربية، هي محض افتئات. إذ هناك تسرعٌ في الحكم على "الطرد والعكس" وعلى سائر الفنون البديعية الأخرى، لِمَا تنطوي عليه من قدرات لغوية وبراعة في النظم.

²¹ عبد الرحمن السيوطي، جنى الجناس، ص208. محمود رزق سليم، صفى الدين الحلبي، ص99، وهي مطلع القصيدة الكافية، إحدى أرتقياته.

²² هو البدر الدماميني، محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد، المخزومي، القرشي، بدر الدين المعروف بابن الدماميني، عالم بالشريعة وفنون الأدب، ولد في الإسكندرية، واستوطن القاهرة، وتصدّر لإقراء العربية بالأزهر، مات في مدينة "كلبرجا" في الهند. من كتبه: "تحفة الغريب" شرح "مغني اللبيب". ولد سنة763هـ، وتوفي سنة827هـ. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج6، ص57.

²³ عبد الرحمن السيوطي، جنى الجناس، ص208، 209.

فهذا النتاج الأدبي البديعي لهذه الفنون الرائعة التي تفتتت أذهان علماء البديع عنها أزهارًا وأزرارًا، كتلفت الانتباه، وتعجب السامع، وتشكل حلقة نور تجذب قلوب المبتعدين عن العريّة وعلومها وفنونها.

وهي من الفنون العريقة في تاريخ الأدب العربي، ثم إذا ما تعرّضنا لنسبة هذا النظم بالقياس إلى مجموع نتاجهم الشعري، وجدنا أنّها نسبة غير كبيرة²⁴.

ف"الطرد والعكس" مثله مثل سائر هذه الفنون، ولا ينبغي أن تُحمّل أكثر من وظيفتها، فما هي وظيفتها؟

1. إطراب أذن السامع، وبهر المتلقي.

2. إذكاء جذوة التحدي.

3. إضفاء التشويق.

4. شحذ الفكر.

5. جلب التسلية.

6. الإشعار بالمرح.

7. تقليب وجوه الحروف العربية القابلة لأي شكل جميل.

فبعد كل ذلك، لماذا لا تُقبل هذه الفنون كما هي من حيث وظيفتها الأساس؟ وإن ورد فيها الركيك والضعيف والواهن، فحالتها حال كل الفنون والعلوم، فهل كل الكنايات والاستعارات والتشابه والمجازات مقبولة وجميلة وجيدة!

إن المتأمل في الألوان المستحدثة في العصرين المملوكي والعثماني، لا سيّما في الألعاب اللفظية، يجدها كثيرة جدًا، حتى ليعجب الإنسان في عصرنا هذا، كيف خطرت في بال أولئك الناس كل هذه الخواطر، وكيف صبروا على نظم مثل هذه الألوان.

وقد يقول قائل: إن الفراغ الواسع الذي عاشوا فيه كان جديرًا بأن يدفعهم إلى مثل هذه الأمور، وهذا ليس بصحيح.

²⁴ أسامة عانوتي، الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر، ص 68، 69.

ولا شك في أن جُلَّ ما نظموا ليس شعراً في المعنى الصحيح الفني للشعر، وإنما هو رصف لكلمات تنطبق في جملتها على بحر عروضي معيّن، وإن لم تتحمّل معنيّ جليلاً أو فكرة جديدة، إنما شأنها في غالبها أن الحروف أقوى من المعاني، وقد حفل قسم كبير من هذا الشعر بجمال المعنى والمبنى معاً.

مقاربات

من الطبيعي أن التطور سنة الحياة، كذلك قانون الكون، يجري على الإنسان كما يجري على الحيوان وعلى كثير من أنواع الجماد. وكما يبدو التغيّر في ظواهر الأجسام والأجساد، فإنه يكون كذلك في الفكر والمعتقدات والأخيلة، والأحلام، وألوان التصورات، تبعاً للعمر والخبرة والتجربة والبيئة والزمن...

فالمرأة الجميلة عند الجاهليين من كانت غرّاء فرعاء، بيضاء البشرة، لؤلئية الأسنان، طويلة العنق، ممتلئة لحمًا، مطبقة شحمًا، خصرها يكاد يكون غير قادر على حمل جسمها، ردفها كالكتيب، يضوع فتيت المسك من كمّها، كسول، نؤوم الضحى، تمشي كأنها انتعلت الشوك حذاء.

والمرأة الجميلة في عصرنا هي التي تزوّدت من خفة الروح، ورشاقة الظل، ولدونة الحركة، وكانت غير مكتنزة لحمًا، وأميل إلى النحافة.

والأمر نفسه بالنسبة إلى القصيدة، فإن معايير نجاحها قديمًا اختلفت عن المعايير الحالية في بعض الأمور. وهذا كله يوصلنا إلى أنه ما اعتُبر من الفنون الأدبية عند بعضهم في زماننا هذا إسفافاً ومضيعة للوقت، هو نفسه في العصر الجاهلي أو ما لحقه من عصور بعين أدباء ذلك الزمان من الجمال بمكان. فإذا ما أردنا أن نحكم على شيء، علينا أن نراه بعين الإنصاف والتجرد، لنكون قضاة عادلين، ونقّادًا صادقين، ولا يكون ذلك إلا بمراعاة إطاره الزماني والمكاني، والحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والأدبية ونحو ذلك، لئلا نغبن فنًا أو أصحاب هذا الفنّ، خصوصًا ما يُعنى بالأشكال الخارجية، والظواهر السطحية، والزينات

اللفظية، وألوان التلاعب بالألفاظ، والتفنن في الشكليات، كما في الشعر الهندسي، و"الطرد
والعكس"، والمحجور، والمشجّر، وملوّن القوافي، والتأريخ الشعري، وأشعار التبادل، والمتواليات،
وما إلى ذلك من ألوان الفنون²⁵.

ولأن العربية لغة حية، نجد من الطبيعي أنها على مدى العصور في حالة بحث دائم عما يلي
حاجات أبنائها المتجددة أبداً تبعاً لسُنّة التطور²⁶.
ومن هنا، كانت رسالتنا إعادة النظرة في هذه الفنون، وعلى رأسها "الطرد والعكس"، لإيفاء
هذا الفن حقّه، ووضعها في إطاره الصحيح ضمن مجموعة الأدب العربي ككل.

نتائج

لقد خلصت هذه الدراسة إلى نتائج، هي ثمرة هذا البحث، أختصرها بالآتي:

أ . علم البديع تابع لعلمي المعاني والبيان في البلاغة العربية، وهو مكمل لهما، ولا غنى لكمال
البلاغة عنه.

ب . البديعيات²⁷ كانت انطلاقة قوية لنشر فنون البديع بين العامة وازدهارها، ومن ضمنها
"الطرد والعكس".

ت . غالب الظن الذي يقارب اليقين أن فنّ "الطرد والعكس" ظهر في العصر العباسي الرابع
(447 . 656 هـ)، على يد **القاسم بن علي الحريري** (و 446 هـ ، ت 516 هـ) الذي اشتهر
بمثل هذه الأنواع الفنية الزخرفية.

ث . حمل "الطرد والعكس" على مرّ تاريخه مفاهيم جديدة في عملية القلب، استحدثها بعض
الأدباء، ما أبعد هذا الفنّ عن التحجّر.

²⁵ بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص161.164.

²⁶ إبراهيم شمس الدين، مقدمة الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، لمحمد الجرجاني، ص3 ، 4.

²⁷ المقصود بالبديعيات القصائد التي قيلت في الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وتضمن كل بيت منها لوتاً من ألوان ما عُرف في ما بعد بعلم
البديع.

ج . ظهر فن "الطرد والعكس" جليًا في مقامات اثنين من أهم كتب المقامات في العصر التليد والجديد: **الحري و اليازجي**²⁸، ولكنه لم يكن سمة ملازمة لكل المقامات. علمًا أنه لو لم يكن فنًا من فنون المبالزة، وفيه من أعمال العقل والبديهة القوية لَمَا ذُكر في مقامات الأنفي الذُّكر.

ح . ليس كل أمثلة فنّ "الطرد والعكس" تتسم بقوة في المعنى، وإنما كثير منها فيه تكلف وتطرف، ولكن لا يمنع ذلك من وجود نماذج نثرية وشعرية تعطي صورة مشرقة لهذا الفن العجيب.

خ . فن "الطرد والعكس" لاقى ويلاقي استحسان الجمهور، والأدب ملك الناس جميعًا، العامة والخاصة على السواء، ولاحظت أن الناس في مواقفهم من هذا الفن ضربان: فمنهم من لم يسمع به من قبل فأعجب به وتلقّف أمثله وأقبل عليها ليحفظها، ومنهم من كان يعرفه ويحفظ بعض أمثله، ويفاخر بأنه يملك شيئًا منه، وأنه مثقف أدبيًا.

د . فنون البديع ليست مضيعة للوقت، ولا هدرًا للجهد، وإنما هي باب كبير للتسلية والتحدّي والتشويق والمساجلة بين الأدباء والشعراء.

ذ . ضمّ البديع العربي، الغثّ والسمين، وعليه؛ فلا يهمل علم ولا فنون هذا العلم لوجود ما هو هابط أدبيًا فيه، وإلا لامتنع الناس عن أكل اللحم لتسمّم بعض الناس يومًا بسبب أكل الرديء الفاسد منه!

ر . "الطرد والعكس" أكثر فنون البديع نُدرّة.

ز . يقوم فنّ "الطرد والعكس" على قواعد محدّدة تحفظه وتؤطرّ له حدودًا معيّنة.

س . حملت بعض فنون البديع العربي أسماء وألقابًا كاسم "الطرد والعكس" أو شبيهاً به، وذلك بسبب فوضى إطلاق المصطلحات.

²⁸ هو ناصيف بن عبد الله بن ناصيف بن جنبلاط، الشهير باليازجي. شاعر من كبار الأدباء في عصره. أصله من حمص بسورية، ومولده في كفرشيماء بلبنان، ووفاته ببيروت. استخدمه الأمير بشير الشهابي في أعماله الكتابية نحو اثنتي عشرة سنة، انقطع بعدها للتأليف والتدريس في بعض مدارس بيروت، وتوفي بها. له كتب، منها: "مجمع البحرين". ط، مقامات، و"فصل الخطاب". ط، في قواعد اللغة العربية، و"الجواهر الفرد". ط، في فن الصرف، و"نار القرى في شرح جوف الفرا". ط، في النحو، و"مختارات اللغة". خ، بخطه، و"العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب". ط، هذبه وأكمله إبراهيم، وثلاثة دواوين شعرية سماها "النبتة الأولى". ط، و"نفحة الريحان". ط، و"ثالث القمرين". ط. ولد سنة 1214هـ، وتوفي سنة 1287هـ. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج7، ص172. بتصرف.

ش . "الطرد والعكس" مجال لشحد القرائح في عملية تقليب حروف اللغة العربية المرنة.
ص . تنوّع "الطرد والعكس" ضمن أنواع وألوان، في دلالة على سلاسته وحيويته.
ض . حفل "الطرد والعكس" بألغاز وأحاج وطرائف تحمل متعة أدبية واضحة.
ط . لم يكن "الطرد والعكس"، وحيداً بين فنون كثيرة تفتّقت عنها أذهان علماء البديع على مرّ
السنوات، حكمها حكم "الطرد والعكس".
ظ . "الطرد والعكس" الجيد له شروط جمالية معيّنة، وهي أن يكون رقيق الألفاظ، سهل
التركيب، ومنسجماً في حالتي النثر والنظم.
ع . لا تخلو الانتقادات التي وجّهت إلى فنّ "الطرد والعكس" من التعميم، والتجنيّ في بعض
الأحيان.

ومن الغبن للغة ولأهلها المجلّين أن يوسم كل فن يُعنى بوشي الحروف وزخرفتها أنه مضيعة
للوقت، لصدوره عن عصر سمّي "عصر الانحطاط"، وفي هذه التسمية نظر؛ وعلى العكس، فإن
كثيراً من هذه الفنون تدل على ذكاء أصحابها ومقدرتهم البالغة في اللغة وبراعة في فنونها، وعلى
تفرد العربية في الآفاق الواسعة لحروفها وروافدها الثرّة.

والأمثلة الجيدة لـ "الطرد والعكس" تعبّر عن ثراء هذه اللغة، وتمكّن الشاعر من لغته، وإنما
كان يذكرون الأدباء هذا استملاً في كلامهم، وامتحاناً لخواطهم، حيث استخدموا مُسكّة
عقولهم، فعرفوا مكامن الجمال والكمال في لغتهم.

وقد رأى غير واحد من أهل البلاغة، وعلى رأسهم أبو جعفر الأندلسي²⁹ والسيوطي³⁰ أن
البديع كالملاح في الطعام، وكالخال في الوجنات، إذا كثر قبج وخرج عن باب الاستحسان³¹.

²⁹ هو أحمد بن يوسف بن مالك الرعيبي الغرناطي ثم البيري، أبو جعفر الأندلسي، أديب، له نظم. ورافق ابن جابر الأندلسي الأعمى في رحلته
إلى المشرق سنة 738 هـ، فعرفا بالأعمى والبصير. مات قبل ابن جابر. من كتبه: شرح بديعية رفيقه ابن جابر، و"طراز الحلة". - خ، في
البلاغة. ولد بعد سنة 700 هـ، وتوفي سنة 779 هـ. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1، ص274. بتصرف.

³⁰ هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمّد بن سابق الدين الحُصَيريّ السيوطي، جلال الدين، إمام، حافظ، مؤرّخ، أديب، له نحو 600 مصنف،
منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة، من كتبه: "الإتقان في علوم القرآن"، و"تاريخ الخلفاء". ولد 849 هـ، وتوفي سنة 911 هـ. خير
الدين الزركلي، الأعلام، ج3، ص301، 302. بتصرف.

ولقد تناول البحث جُلَّ فنون العربية التي تُعنى بتوشية الألفاظ وتحلية الحروف، وعرضها مجلَّوةً بعد رفع الغطاء عن وجهها، لتظهر للأعين محاسنها.

هذا، وإن فن "الطرد والعكس" محدود، مبهم البدايات، مشتت المعلومات، تجده في هذا الكتاب وفي ذلك وفي ذياك، أمثله القوية معدودة، تكررت في كثير من بطون كتب البلاغة العربية، لكنه بالمقابل قابل للحياة قريب من القلب، وما زال الناس إلى يومنا هذا يجزرون من خلاله عقولهم، لا سيما في أمثله الملغزة، وقد أثبتت التجربة في المسابقات التلفزيونية والإذاعية وغيرها، وفي الثانويات والمعاهد، وفي السهرات الأدبية وليالي السمر الشعبية، أن فن "الطرد والعكس" مادة يعتدّ بها وتلقى تجاوبًا جماهيريًا، ولها أنصار ومتذوقون.

وهذا الفن كغيره من الفنون، وإن أهمله شعراء كثير، إلا أنه كان على مائدة شعراء آخرين، فلم يكن هذا الفن غاية في حد ذاته، وإلا لما فات الشاعر العربي **أبا الطيب المتنبي**³² وغيره من فحول الشعراء المحلّين في سماء علوم العربية وفنونها.

والإنسان منا يَعْرِفُ اللهَ بِنَحْلَةٍ، بأحد طرفيها تعسل، وبالأخر تلسع، **والعسل مقلوب اللسع**. وهذا **طرد وعكس**. فليتأمل ذلك...

إن البحث الذي بين ظهرائنا لم يُرد منه شرح فن "الطرد والعكس" أو ما يسمّى "جناس ما لا يستحيل بالانعكاس" وإيراد أمثلة على ذلك فحسب، إنما المراد تأكيد أنه لا بأس بسلوك مسلك زحرفة الحروف بالتساؤق مع المعنى الجيد، فهما كالظهر مع البطن لا ينفصلان، وذلك في زمن أعْبَرَ خَسِرْنَا فيه المبني والمعنى، اللهم إلا قليلاً قَيَّضَهُم اللهُ لرفع رايات العربية والدَّبَّ عن حياضها وإضافة الجديد إليها، حيث أودعوا من أبكار الأفكار، فغدا لهم في اللغة العباب الزاخر واللباب الفاخر.

³¹ عبد الرحمن السيوطي، مقدمة جنى الجنس، ص13.

³² هو أحمد بن الحسين بن الحسن اليمني الجعفي، أبو الطيب، المشهور بالمتنبي، ولد في الكوفة، اتصل بسيف الدولة في حلب ومدحه، ثم غادره إلى كافور، ثم تنقل في البلدان إلى أن قتل بيد قطع الطرق أثناء عودته إلى بغداد، ودفن بالقرب من واسط. ولد سنة 303هـ، وتوفي سنة 354هـ. المرجع نفسه، ج1، ص115، 116. عفيف عبد الرحمن، معجم الشعراء العباسيين، ص397. بتصرف.

إنَّ فنَّ "الطرد والعكس" احتفاليَّةٌ للحروف العربيَّةِ الولادة، وأنموذج جميل في حركية الحروف، يشبه النظر إلى المرآة.. وضرب الكرة إلى الحائط التي ما تلبث أن تعود.. يحاكي مدَّ البحر وجزره.. وقد يقرب مثالا من الصورة ذات الأبعاد الثلاثة.. كما نرى أمثاله في كل ما شأنه أن يرد إلى أصله.

و"الطرد والعكس" الجميل الخلاب نادر كالكبريت الأحمر، إذ قليل من ظفر بفرائده، فهو متعذر على الواجب، ومتوعر على الناهج... ومع ذلك فهو فن للعموم... مفتوح فيه المجال لكل من عنده حذاقة في نظامه، ورشاقة في كلامه...

كل ذلك مع الإقرار أن الأصل للمعنى... لئلا يكون هذا الفن كالثياب الحسنة المزخرفة، على الشوهاء القبيحة الخرفة، أو كعمد من ذهب، لسيف من خشب.

وعليه، لم يكن الخوض غمار هذا الفن، ضربًا في الجهول، أو عبثًا بغير نتيجة، بل على العكس، يُرجى أن يفتح هذا البحث نافذة كبيرة على مستقبل، يستفيد أجياله من الماضي الأدبي، وينتخلون الجيد منه ويرمون الرديء، فمن لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل، والأدب سلسلة لا تنقطع، وإن تخللها حلقات رديئة ومحطات صدئة، إلا أنها في النهاية سلسلة واحدة يقوي بعضها بعضًا، ويجبر القوي كسْرَ الضعيف منها.

تقييم

من المهم بمكان عدم الاحتكام إلى الشائع من الأحكام، وقبول المتناقل وكأنه الحقيقة النهائية، فلا يكفي للحكم الحقيقي على الأدباء شهرتهم³³، ولا على الفنون الأدبية ما تناقلته المظان عنها، فالبحث الحقيقي لا بد أن يرتاد من جديد وقائع الماضي، ويسجل أعمال الأدباء، فكثيراً ما كانت الشهرة تغلف اتضاعاً، وتخفي أعمالاً لا قيمة لها، بينما تُسدل الستار على أعمال عظيمة لم يُتَح لأصحابها الشهرة، أو قلب لهم الزمان ظهر المِحَن فحوكموا أحكاماً تفتقر إلى الموضوعية.

ومن هنا كانت غاية كلِّ دراسة أكاديمية البحث عن الحقيقة بوجوهها الإيجابية والسلبية، ومحاولة نقدها وتقييمها تقييماً موضوعياً عادلاً، فليس كالحقيقة من يُعلي شأن الإنسان وأعماله وإبجازاته العظيمة.

وهذا ما حاولنا أن نقوم به في هذه الدراسة، وضع هذا الفن في إطاره الصحيح، والحكم عليه حكماً موضوعياً متجرداً، فليس "الطرد والعكس" شأنًا مرذولاً في عالم الأدب، ولكنه أدب

³³أورد في ما يأتي هذه المفارقة لكل من ينظر إلى فن "الطرد والعكس" بعين الريبة. فقد حُكي أن "بابلو بيكاسو" زعيم الرسّامين المعاصرين السرياليين، خطرت له يوماً فكرة عابثة ساحرة، (مع اعتبار الأبعاد المعنوية للفن التشكيلي الجيد) ثم نَقَّدها عملياً. ذلك أنه جاء بقطعة قماش بيضاء، وقَرَّبها من ذنب حمار مربوط، بعد أن صبغ الدُّنْب بألوان مختلفات، وأغرى الحمار بتحريك ذنبه يميناً ويساراً، صعوداً وهبوطاً؛ وبيكاسو ممسك بقطعة القماش بحيث يتحرك الدُّنْب المصبوغ عليها... وما هي إلا دقائق حتى ارتسمت على القماش خطوط... طبيعي أن لا معنى لها. ثم بدا للرسّام الساخر أن يكمل لعبته، فجعل لهذه القماشة إطاراً جميلاً، ووقَّع في أحد أطرافها، وأراد أن يختار لها اسماً؛ ودارت في ذهنه تسميات كثيرة، وتخيَّر في أيَّها أدعى للإثارة واهتمام الناس والنقاد وإعجابهم.. وكان من تلك الأسماء: "الفراس المهزوم" و"أصيل البحر" و"عنكبوت الفكر" و"دمعة العاشقة" و"أغنية الفراشة"، لكنه رفضها جميعاً؛ واختار عنوان "طحالب الصَّبَايا"، لأنه لا معنى لهذا العنوان!!! ثم قام بيكاسو بعرض لوحته في أحد المعارض، فشَّده ودهش النقاد على اختلافهم بها، واحتاروا في وصفها واستخراج معانيها!!! وتناقلت الصحف والمجلات هذا الموضوع، من بلد إلى آخر... ثم بيعت اللوحة بثلاثمئة وخمسين ألف جنيه إنكليزي!!! بكري شيخ أمين، مقدمة مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص7، 8.

هو بابلو بيكاسو أحد أعلام الفن التشكيلي الذي أعجب به الناس لخصوبته وتنوعه، ولد في مدينة ملقة بإسبانيا، أصبح مشهوراً ولم يبلغ العشرين من عمره، أقام في باريس ومات فيها، رسم في حياته الفنية عشرين ألف لوحة، أي ما يعادل خمس لوحات في الأسبوع، وبيعت بأثمان عالية، وكان ثرياً. استغرقت السياسة وكانت له لوحات سياسية. كانت له أساليب مختلفة، فهناك المرحلة الزرقاء في حياته، والوردية، والكلاسيكية الجديدة، وغيرها. ولد سنة 1299هـ، وتوفي سنة 1393هـ. أنيس منصور، الخالدون مئة أعظمهم محمد رسول الله، ص383-384. بتصرف.

مرحلة كان لها ظروفها وخصائصها وتوجّهاها، ناهيك عن استذكارنا للمقولة المشهورة: "إن الحجر المرذول، قد ينفع زاوية".

وفي مقابل كل ذلك، فإن من كثر عمله وإنتاجه الأدبي والفني لم يأت كله في مقام واحد من القوة والإجادة، فهذا **المتني** الذي يكاد يعترف له الجميع بأنه سيد الشعراء، يوجد في شعره الضعيف والأضعف، وهذه طبيعة في أصل البشر غير المعصومين.

وإن المنصف العادل هو الذي يُنزل الأمور منازلها، ويعطي الأشياء حقوقها، فلا يرفض فنّاً لضعف بعض أمثاله، ولا يُعرض عنه بسبب غمّر خاض بجهل فيه، فليس في كل صدفة لؤلؤة، ولا يترك الصدف من السّبر لأن بعضه ليس فيه.

4. آفاق

أرجو أن تفتح هذه الدراسة آفاقاً جديدة في البحث الأدبي، وتشجّع أهل الفكر والأدب على عدم الركون إلى المتعارف عليه مما سميّ مسلمات أدبية، والانطلاق في نظرة نقدية بنّاءة متجدّدة، لسبر الأغوار، ونقد الأخبار، وصولاً إلى الحقيقة التي هي مُرتجى كل دارس، وبغية كل باحث، لإلقاء الضوء على قديم اللغة العربية وفنونها، وتهديب موروثاتها وتشذيبها، وابتكار الجديد في سمائها، آملاً أن يكون ما قمت به طريقاً في هذا السبيل، والله ولي التوفيق.

فهرس المصادر والمراجع

. القرآن الكريم.

1. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء، -395هـ ، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل، ط1، 1991.
2. التَّنسي، محمد بن عبد الله، -899هـ ، نظم الدر والعقيان، تحقيق نوري سودان، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، لاط، 1980.
3. الجرجاني، محمد بن علي الأستراباذي الحلبي الغروي، - بعد 729 هـ ، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2002.
4. الحلبي، صفي الدين عبد العزيز بن سرايا، -750هـ ، نتائج الألفية في شرح الكافية البديعية، تحقيق رشيد العبيدي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000.
5. الحموي، ياقوت بن عبد الله، -626هـ ، معجم الأدباء، الرياض، دار الزهراء، ط1، 1991. ونسخة أخرى: القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، لاط، لات.
6. الداية، فايز (م)، البلاغة العربية، لاب، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، لاط، 1987.
7. الذهبي، محمد بن أحمد، -847هـ ، سير أعلام النبلاء، تحقيق مصطفى عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2004.
8. الزركلي، خير الدين (م)، الأعلام، تحقيق محمد محمد، بيروت، دار العلم للملايين، لاط، لات.
9. سليم، محمود رزق (م)، صفي الدين الحلبي عبد العزيز بن سرايا، -750هـ ، القاهرة، دار المعارف، ط3، لات.
10. السيد، عز الدين علي (م)، التكرير بين المثير والتأثير، بيروت، عالم الكتب، ط2، 1986.
11. السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال، -911هـ ، جنى الجناس، تحقيق محمد الخفاجي، لاب، دار الفنية للطباعة والنشر، لاط، 1986.
12. شيخ أمين، بكري (م)، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، بيروت، دار العلم للملايين، ط4، 1986.
13. طاش كبري زاده، محمد بن أحمد، -1030هـ ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1985.
14. عانوتي، أسامة (م)، الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر، بيروت، المكتبة الشرقية، لاط، 1971.
15. العبَّاسي، عبد الرحيم بن أحمد، -963هـ ، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، لاط، لات.
16. عبد الرحمن، عفيف (م)، معجم الشعراء العباسيين، طرابلس لبنان، جروس برس، ط1، 2000.
17. عطوي، رفيق (م)، صناعة الكتابة، بيروت، دار العلم للملايين، لاط، لات.
18. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، -170هـ ، العين، تحقيق مهدي الخزومي وإبراهيم السامرائي، إيران، دار الحجر، لاط، 1988.
19. منصور، أنيس (م)، الخالدون مئة أعظمهم محمد رسول الله، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط7، 1986.
20. النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل، -1143هـ ، نفحات الأزهار على نسيمات الأسحار في مدح النبي المختار، في هامشه: عبد الرحمن الشافعي العلواني الطبيب، قطر الغيث المسجم على لامية العجم، بيروت، عالم الكتب، لاط، لات.